طرق الحج الإفريقية القديمة التقاليد والمغزى والمضمون

ا.د. حسن مكي محمد أحمد*

لعل أول من عالج موضوع تقاليد الحج في غرب إفريقيا هو الدكتور المرحوم عمر النقر الذي جعل موضوع رسالته في الستينيات في جامعة لندن تقاليد الحج في غرب إفريقيا وقامت بنشرها دار جامعة الخرطوم للنشر في عام ١٩٧٢م [١].– وتلى ذلك ورشة عمل عقدتها اليسكو في الخرطوم عن ذات الموضوع، ثم تلا ذلك محاولة لعمل فلم سينمائي، عقدت له عشرات الاجتماعات – ولكن لعل المؤتمر الذي نحن بصدده والذي جاء بمبادرة من مدير الجامعة البروفيسور، كمال محمد عبيد، هو أول مؤتمر جامع دولي يناقش هذا الموضوع من مختلف جوانبه.

تتمثل أهمية هذا الموضوع، أنه يتداخل مع تقبل الأفارقة للدعوة الإسلامية ومع تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا. وكذلك مع تداخل أمر الحج مع الصراعات السياسية والاقتصادية في إفريقيا وكذلك دور طرق الحج في ترقية التجارة والثقافة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط وشاطئ البحر الأحمر شرقاً وغرباً، كما أن هذا المؤتمر يكشف عن التداخل والتمازج العرقي والروحي الذي أحدثه حراك الحج مابين الأمة الإسلامية، حيث تداخلت وتواصلت الجماعات الإسلامية والمذاهب الروحية والطرق الصوفية والقيادات والزعامات، مما أدى إلى صهر الجماعة والتقارب بين المذاهب وتبادل الخدمات والخبرات الفكرية والروحية والمادية.

لا نعرف متى بدأ الإنسان الإفريقي رحلته للحج – وهنا نعنى إنسان الممالك الإفريقية وإلا فإن محور القاهرة / عيذاب وسواكن ظل متواصلاً مع الحجاز وشاطئ البحر الأحمر منذ فجر التاريخ – ولكن نتساءل عن مناطق الصراع الحضاري الساخنة في غرب إفريقيا وممالكها وصلتها بطرق الحج، ومع إن المصنفات التاريخية لا تسعفنا بإجابات قاطعة، ولكن من المؤكد أنه منذ القرن الحادي عشر الميلادي والخامس الهجري بدأ ملوك كانم وبرنو في شق طريقهم للحجم، وان الماي دونيم غرق في عيذاب في طريقه للحج ربما في حجته الثالثة عام ١١٦٠م[٢].

وأن حجاج كانم قاموا بتمويل بناء مدرسة ابن رشيق في القاهرة في الفترة ما بين ١٢٤٨/١٢٥٣. وإذا كان حجيج غرب إفريقيا قد شقوا طريقهم للحج في شكل قوافل وأمراء وقواد جيوش وتجار وفقهاء، وقراء منذ القرن الخامس الهجري، فنحن نحتفل في هذه الجلسة بمرور ألف عام هجري أو ما يزيد على رحلة الحج من أقاصي غرب إفريقيا إلى وسطها سيناء والبحر الأحمر – ولعل المسلم في نيجيريا أو غرب إفريقيا أو وسطها حينما يحتفل بمرور أكثر من ألف عام على اقتحامه الأهوال وقطعه المسافات

---

* مركز البحوث والدراسات الإفريقية- جامعة إفريقيا العالمية

(١) Umer Al-Naqar, The Pilgrimage Tradition in west Africa, Khartoum , Un.Press 1972

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨

وعبوره الأنهار والبحار لأداء ركن الإسلام الخامس وإكمال مطلوبات عقيدته، يكون قد حسم موضوع الهوية الإفريقية الزنجية منذ قبل ألف عام.وضحى في سبيل تأكيد هذه الهوية ويصبح الحوار المطروح حول الهوية الإفريقية محلولاً ومعلوماً منذ ما يعادل الألف عام.

بل إن ممالك غرب إفريقيا أصبحت دار إسلام بينما كان سودان وادي النيل " السودان الحالي ممثلا في علوة والمقرة " دار عهد، حيث لم يتم تحول السودان إلى دار إسلام إلا في عام ١٥٠٤ م مع قيام سلطنة الفونج، أي أن ممالك السودان الإسلامية سبقت إلى إحراز شرف دار إسلام قبل السودان الحالي بنحو خمسمائة عام.

ولعل أول شخصية سودانية مهمة قامت بأداء فريضة الحج وأوقفت أوقافاً في الحرمين، ما تزال السلطات السودانية تسعى لتفعيلها هو الشيخ عجيب المانجلك [٣]. الذي نجد كثير من المذهبيات في المسجد النبوي من أعماله – وفتح الشيخ عجيب الطريق الصخري مابين سنكات وسواكن وكان أول من حج بالطريق الذي فتحه والشيخ عجيب هو في البرتوكول نائب الملك ولعل حجته جاءت في أواخر القرن السادس عشر، لأن الشيخ عجيب عمّر حتى بلغ المائة والأربعين عاماً – وتولى المشيخة عام ١٥٥٣ ولكن حجة كبير مشايخ السودان، جاءت متأخرة خمسمائة عام عن ملوك السودان الغربي، ومتأخرة حوالي مائتي عام من ملك مالي منسا موسى الذي تبعه في رحلته للحج ثمانية عشر ألف من الخدم والحرس والتابعين وكان يحمل معه من الذهب مالا يقل عن عشرة أطنان – أي أن قيمة الذهب السوقية بتقديرات اليوم تفوق ال ٥٥٠ مليون دولار وقد عد من ضمن أكثر من مائة غني مروا على التاريخ الإنساني. والعجيب أنه حينما دخل القاهرة أحدث فيها حركة تجارة وازدهارا وكذلك في الحجاج وأنفق هناك كل ما لديه حتى اضطر حينما عاد للقاهرة في عام ١٣٣٤م /١٣٣٥م أن يستلف من تجار القاهرة لإكمال رحلته على أن يسدد لهم بعد عودته – وقد سبقه عدد من ملوك مالي كساكورا وماي دوناماMai Dunuma Ibn Umm(١١٥٠– الذي اغتيل في طريق الحج ١١٥٠).

للأسف إن انقطاع طريق الحج بسبب الغزو الاستعماري، أدى إلى تجفيف منابع الثقافة الإسلامية، لأن هذا الطريق كان طريق ثقافة ومثاقفة ومفاعلة حضارية حيث المصاهرات والزيجات وانتقال الأفراد والتجارة، ولعله، لو كان هذا الطريق سالكاً لما رأينا الحروب الأهلية والصراعات القبلية، لأن حركة الطريق تعطلت نتيجة للحدود السياسية الاستعمارية ونتيجة لخلق حركة اتجاه جديد للموانئ الإفريقية وبدلاً من أن تتجه التجارة للداخل أصبحت موجهة للخارج ولحركة الموانئ الجديدة وحركة التجارة الجديدة وحركة الثقافة الجديدة، حيث أصبحت إفريقيا مصدراً للمواد الخام وسوقاً للمنتجات العربية المادية والثقافية والروحية. كان طريق الحج يمثل مشروع الجماعة الإسلامية التعليمي والحضاري ويمثل القوة الناعمة للتواصل والتفاعل الإفريقي الإسلامي الممتد بين مثلث الأطلسي / المتوسطي وضفتي البحر الأحمر ولعل الانقطاع الذي حدث في طريق الحج جعل وضع المنطقة مابين الأطلسي والبحر

---

[٣] ولو الشيخ عجيب المانجلك ١٥١٩ وتولي الملك ١٥٥٣ وملك ٤٥ عاما وهناك روايات مختلفة حول عمره وتاريخ ولادته وموته

الأحمر أشبه بوضع المناطق المقفولة في جنوب السودان والنيل الأزرق وجنوب كردفان، ولعل ما يشير إلى ذلك أن بولاق التكرور في القاهرة معناها ميناء التكرور حيث خصص بولاق – وهي كلمة تركية تعني الميناء للتكارنة الذين يفدون على النيل إما بالصحراء أو عبر المتوسط– ولكن الآن التكرور تجارتهم عبر الأطلسي إلى أوربا والموانئ الأمريكية – بل حتى في السودان بلاد كدار مالي في عطبرة إنما استمدت اسمها من طريق حجاج مالي ولعل آخر هذه الهجرات هي هجرة ماي برنو وهو الأمير برنو الحفيد الخامس لمحمد بيلو إلى منطقة سنار.

أصبحت بلاد السودان الغربي برنو ومالي وصنغاي جزءاً من دار الإسلام وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية كتب بها السعدي المتوفي ١٦٥٥ وعبدالكريم المغيلي المتوفى ١٥٠٣، وأحمد بابا المتوفي ١٦٢٧، كما كتب اللهجات المحلية بالحرف العربي منذ ذلك الزمن البعيد وبينما حج العشرات من ملوك السودان الغربي، فقط أدى ثلاثة من الخلفاء العباسيين فريضة الحج وأشهرهم الخليفة هارون الرشيد، كما أن ملوك السودان الغربي ترددوا حجاجاً على بيت الله الحرام أكثر مما فعل المماليك الذين حكموا مصر أكثر من ثلاثمائة عام.

لم تك قوافل الحجيج مجرد ما يتبادر إلى الذهن من كلمة قافلة، وإنما كانت مدناً متحركة فيها ربما ألف جمل ومثلها من البغال والحمير والخيل محملة بالزاد والكتب والبضائع، وأدى فتح طريق الحج إلى هجرات عربية مضادة ممثلة في القبائل العربية التي هاجرت في الدولة الفاطمية على غرار هجرة الهلالين – ومما سهل الهجرة أن الطرق قد انفتحت والخبرات زادت كما نقل الحجيج خبراتهم عن أراضيهم وممالكهم، مما سهل على العملاء والمغامرين والباحثين عن المرعي والمال.

وقد عدّ السيوطي أسكاي محمد من مجددي القرن العاشر بل والإمام الحادي عشر في سلك المجددين– ص ٤ (٤).ومن حكام برنو ماي أدري وقد أدى فريضة الحج عام ١٥٧٥ واشتري منزلاً وبستاناً بالمدينة المنورة وتحصل على مدفع تركي وعاد به إلى مكة مما ممكنه من الانتصار على خصومه.

وصاحبت حركة الحج، حركة فكرية، أدت إلى انتشار المذهب المالكي على طريق الحج وجوز المختار الكنتي الامتناع عن الحج لعدم الأمن ولم يؤد المختار الكنتي على أتساع نفوذه في ماسينا وديار الهوسا كذلك لم يؤدي فريضة الحج عثمان دان فودي وشقيقه عبدالله بن فودي وإن فاضت كتبهم بفقه الحج كما فاضت أشعارهم بالحب والعشق للديار المقدسة.

وإذا اشتهرت إفريقيا بصبغتها الصوفية فإن المؤثر الأكبر في انتشار التصوف إنما هو طريق الحج، فالطريقة القادرية دخلت السودان على يد تاج الدين البهاري الذي ألتقاه تاجر سوداني من أربجي ودعاه لعلوة لتوطين طريق عبد القادر الجيلاني، كما أن عمر بن سعيد الفوتي المولود ١٢١٠هـ – ١٧٩٥ أدى فريضة الحج في عام ١٢٤٣هـ – ١٨٢٨م ثم انقلب مجاهداً وأصبح همه في الحياة توطين النفس التجاني في السودان الغربي وأدى توطين التجانية في غرب إفريقيا إلى انتقالها إلى تشاد

---

(٤) The Tradition مصدر سبق ذكره

والسودان والجوار عن طريق الحجيج من الشناقيط وحجاج غرب إفريقيا – ومع إن الفوتي لم يعمر " مات عام ١٨٦٤ " إلا أن جهاده ضد الفرنسيين أكسبه بريق مقاومة الأجنبي الغاصب.

واجهت التجانية في السودان الغربي، أصحاب القوم من القادرية بقيادة الشيخ أحمد لوبو توفي ١٨٤٣ – وخلفه على السجادة القادرية ابنه الشيخ المتوفى ١٨٥٣ في عاصمة اللوبين حمدنا الله، وقد توغل الشيخ عمر الفوتي بقوة السلاح في عاصمة القادرية وفرض التجانية بديلاً عن القادرية. وإلي يومنا هذا أصبحت القادرية والتجانية تتقاسمان الأرض في السودان الغربي وإن كان النشاط والأتساع للتجانية، لأن مزار التجانية في فاس حيث مرقد الإمام التجاني[٥]. كما أن دولتي المغرب والجزائر تتنافسان على دعم مسارات الطريقة التجانية، باعتبار أن الجزائر هي مسقط رأس أحمد التجاني والمغرب مدفنه. ويمكن أن نقدر أثر طريق الحج في مشروع الدعوة الإسلامية بالمقارنة بين إفريقيا التي مر بها طريق الحج – وإفريقيا التي لم يمر بها طريق الحج ومن ثم لم تعرف الإسلام، حيث إن إفريقيا طريق الحج لاتوجد فيها أزمة هوية أو عقده تجاه الثقافة العربية الإسلامية، بل إن أهل إفريقيا السودانية يحبون الإسلام والعروبة ولهم حنين واشتياق للحرف القرآني، بينما على العكس تنعدم هذه الروح في السودان الذي لم يعرف طريق الحج وشكلت عقليته الثقافة الاستعمارية والمشروع التنصيري الحديث. "جنوب السودان حتى الجنوب الإفريقي".

أدى طريق الحج إلى نشر التنوير والتمدن ومعرفة الكتابة والنظافة والطهارة والوعي بالآخر والكشوفات الجغرافية وتقبل الأفارقة للحكمة الصوفية وتشكل الأهالي على الولاء للسجادات الروحية كما أدى طريق الحج إلى انتشار المذهب المالكي، كما أن طريق الحج أدى إلى انتشار الأمن والسلامة، ورحلة الحج في قوتها وتأثيرها ليست بأقل من التجربة الاستعمارية بكل جبروتها واستقلالها وفتوحاتها والتأسيس للفرانكفونية والأنجلوفونية أو غيرها بل ومثل طريق الحج ذات قوة الفتوحات الإسلامية، بل إن اندثار طريق الحج ربما مهد للحروب الأهلية في دارفور وتشاد وغيرها.

الحج وانتقال المعارف الروحية والعرفانية

التصوف الهرمي والبناء الروحي والتنظيمي :

انتقال تجربة آسيا الوسطى إلى العمق الإفريقي

بسط الاستعمار الفرنسي ابتداء من عام ١٨٣٠ يده في الجزائر ومن هناك بدأ التغلغل في غرب إفريقيا، بينما عهد الإنجليز والفرنسيون والمشروع التنصيري بدأ التغلغل في مصر والسودان وعلى امتداد النيل في حماية دولة محمد على وأبنائه وخصوصا في عهد الخديوي إسماعيل وحتى أصبحت مصر في قبضة الإنجليز ابتداء من عام ١٨٨٢م.

ولعل أكبر مشروع تنويري، شهدته أفريقيا في القرن التاسع عشر ومكن من التصدى السلبي للمشروع الغربي بشقيه الاستعماري والتنصيري هو المد الصوفي الجديد الذي مثلته ثلاث مدارس هما

---

[٥] ولد الشيخ أحمد التجاني ١١٥٠ هـ – ١٧٣٧ وتوفي ١٨١٥ ودفن بفاس

التجانية ومدرسة السيد / أحمد بن إدريس الفاسي، والمدرسة السمانية – واستمدت المدارس الثلاثة مشكاتها من طريق الحج.

فالسيد أحمد التجاني وتلامذته غرسوا تعاليم التجانية في مؤتمر الحج – وكذلك السيد أحمد بن إدريس المولود بالمغرب والذي حج عن طريق مصر في عام ١٨٩٨ والسيد أحمد البشير الطيب والذي كذلك حج في ذات الحقبة والتقى بأستاذه محمد عبد الكريم السمان – والجامع بين السجادات الثلاثة، أنّها واجهت المشروع الاستعماري بآليات استعادة الثقافة الإسلامية بالتعليم والتنوير والذكر وحضور القلب وتعلقه بالله وبالنبي (صلى الله عليه وسلم) فيما عرف بالنور المحمدي والحب الإلهي والحب لأصحابه وآل البيت والدوحة النبوية، كما أفرغت طاقتها في التعليم والذكر وتحفيظ القرآن – ومع إنها لم تلجأ للعنف والمقاومة إلا أنها حصنت أتباعها والمجتمع من حولها من الثقافة الاستعمارية وحافظت على الأحكام الشرعية، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق والحفاظ على العائلة كأساس للاجتماع، ونجحت في التصدي للإباحية الغربية والزواج المدني والإلحاد والمشروع التبشيري بمدارسه وجمعياته الخيرية وعناوينه الكثيرة.

واتخذ الثلاثة الكبار أرض الحج وطريق الحج ملاذاً وكان السابق السيد / أحمد التجاني المتوفى في سبتمبر ١٨٥٠ والشيخ أحمد الطيب البشير المولود ١١٥٨هـ– ١٧٤٢ م والمتوفى ١٢٣٩ هـ – ١٨٢٣ م فقد أسهم الثلاثة التجاني، وبن إديس، وابن البشير في تشكيل الخريطة الروحية للسودانين الشرقي والغربي كما دشنوا خريطة طريق جديد للعمل الروحي تقوم على جعل التصوف مؤسسة في قمة هرمها الشيخ المؤسس ثم خلفاؤه ثم المدمين ثم التابعون من الحيران مما أكسب العمل الصوفي الحركة الجماعية والانتشار المنظم والبعد الحركي التنظيمي عبر التسلسل الهرمي.

وكان ثلاثتهم يؤمنون بمشروعية الخلافة العثمانية، ويتعاطفون معها، في وقت أشتد فيه وجع الخلافة وكثرة الحركات الخارجية عليها، الأمر الثاني المشترك بين ثلاثتهم سعيهم لإيجاد المسلم الذاكر بالتربية والتلقين والأوراد والأحزاب والذكر بالقلب واللسان والحب الخالص، كما طعموا تعاليمهم بالحكمة أينما وجدت عند أبي الحسن الشاذلي وتلامذته أو عند متصوفة آسيا الوسطي كما هو الحال مع جلال الدين الرومي أو الطريقة البكتشاية أو القادرية أو النقشبندية، واستعانوا بالمديح النبوي والشعر الصوفي تعبيراً عن الشوق والوجد والفروق وبشروا بالفتوحات الروحية مع وجود فوارق بسيطة هنا وهناك.

ومن صلب التجانية خرج الجهاد الفوتي ومن صلب السمانية خرج الجهاد المهدوي ومن صلب تعاليم ابن إدريس جاء جهاد السنوسية وجهاد مهدي الصومال– علما بأن رئاسة الطريقة في الحالات الثلاثة كانت ضد العنف والمقاومة، باستثناء الحالة السنوسية، كما أن قادة الطريق كانوا مع الفتوحات الروحية والتربية، ربما إدراكاً للفارق بين قدرات المسلمين وآليات التدمير والبطش التي كان يملكها الآخر المستعمر بجيوشه وأساطيله، ولذلك ركز ثلاثتهم على التعليم والدعوة والجهاد السلبي جهاد النفس لحفظ الصيرورة الإسلامية وبقائها.

خرج ابن إدريس عام ١٧٩٨م إلى الحج ولم يعد مرة أخرى إلى داره، وانقطع مابين مكة والحجاز ومصر واليمن ٥٢ عاما في التأسيس لمدرسته التي تخرج منها الميرغني الكبير والسنوسي الكبير

بالإضافة إلى مدارس صوفية أخرى على امتداد العالم الإسلامي، أما السمانية فقد أصبحت الأوسع انتشاراً في السودان تليها القادرية والتجانية وتعود مشكلة كل هذه الجماعات إلى تجربة الحج وطريق الحج ولعل آخر تجربة مكتوبة كطريق الحج هي تجربة الشيخ عبد المحمود نور الدائم في عام ١٧١٢ وهناك ورقة كاملة في هذا الموضوع.

انخفض عدد الحجيج في القرن التاسع عشر رغم بروز هذا الثلاثي المبارك بفعل الاستعمار ففي مرحلة لم يكن في تمكبتو سوى ٦ حجاج كما انحطت أوضاع الثقافة الإسلامية، وأصاب الخلافة العثمانية الضعف والتفكك كما أصبح عدم الاستقرار وانعدام الأمن من سمات المرحلة – ولعلنا نحتاج لورقة إضافية في هذا المجال، كما أن رواد المهدية في السودان بدءاً بمحمد أحمد المهدي وخليفته وخلفائه لم يؤدوا فريضة الحج: لا قبل الدعوة للجهاد المهدوي ولا بعده وهذا كذلك يحتاج لورقة تبين لماذا لم يفكروا في الحج كما فعل قادة السمانية مثلاً – فالشيخ أحمد الطيب أدى الفريضة وعمره ١٦ عاماً بينما الإمام المهدي حتى بلغ الأربعين لم يفكر في الحج وربما نجد له العذر في مرحلة الجهاد. والله أعلم